

على هامس التربة :

نظرات في كتاب أميل

لجان چاك روسو

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

كان من العسير أن أطرق موضوع التربية في مقالاتي السابقة التي نشرت في هذه المجلة دون أن أتعرض لذكر كتاب (أميل) دستور التربية في أوروبا في وقت من الأوقات ، فشهرة كتاب (أميل) شهرة عالمية حتى لا تكاد تخلو منه مكتبة من المكتبات الراقية . فهو ثروة جامعة عصفت بالعالم الأوربي سنة ١٧٦٢ وكانت نتيجتها أن طورد روسو في مختلف الممالك الأوربية وحاجته الأنندية العلمية وصادرت كتابه وتبرأ منه البابا وتحالفت عليه المتاعب وأحاط به العنت والاضطهاد .

وروسو لم ينشأ نشأة يحسد عليها ، وإن كان من الضروري لاستيفاء بحث حول كتاب تربوي أن نبدأ البحث أولا حول بيئة الكاتب وقيمه الاجتماعية وظروفه الخاصة تلك الأشياء التي تؤثر على الكاتب ، وترويه من معينها ، وتغذيه بتعاليمها فيخرج نتاجه ثمرة غرسها وتعاليمه من أصل تربيتها ، فلست أحب أن أتناول حياته الخاصة بالبحث والتنقيب فقد تناولنا من قبل مئات الكتاب في الغرب والشرق . وإنما يعني أن أتناول كتاب أميل ذلك الكتاب الاجتماعي الخطير .

فملاحظته على مؤلف الكتاب من كتابه أنه خيالي ، وخيالي متطرف ، ولاغربة في ذلك فقد وضع دستوره في قصر صغير تبرع له بسكناه دوق لكسمبور وزوجته ، وهذا القصر خلوي جميل يحيط به نبع ماء من ناحية ، وأشجار البرتقال من الناحية الأخرى حتى لقد شبه بعضهم ذلك المنزل بأنه كالجزيرة الجميلة Isolo Bella في البحيرات الإيطالية .

وفي هذا الممشى الفاتن ، بين همس الطيور ولحن المياه وعبر أشجار البرتقال وبين هجوع الطبيعة وروعة الفنان الأعظم ، كتب روسو كتابه (أميل) فجاء يحمل شذى الطبيعة ، يعطر بها ابن الطبيعة تلميذه الوهمي (أميل) .

فروسو يريد في كتابه أن يجعل الطبيعة أساس التربية ، والتحرر المطلق من كل قيد فالطفل يولد فلا يحزم بقباط ولا يلف بأربطة ، بل يترك طبيعيا لا قيود ولا سدود . ثم يعلم وسط الطبيعة السافرة حيث يجد فيها الحرية الواسعة ، وحيث الأرض ملك للجميع ، فلا وطن ولا قومية ولا ملكية ولا شيء . اللهم إلا الطبيعة أم العالم ، حيث الدين ، دين الطبيعة .

ثم نراه وهو يناقض تلك الآراء في أقواله وأعماله ، فهو سويسرى متطرف طالما انتضى قلمه يدافع به عن أهل وطنه كما حدث بينه وبين فولير عند . أراد الأخير أن تمثل له رواية في جنيف ، فأقام روسو عليه الدنيا وأقعدما زاعما أن التمثيل مفسد للأخلاق ولا يجب أن يتعرض أبناء وطنه لمفاسده . كذلك نراه حيننا قد اضطر إلى اعتناق الكاثوليكية بدل البروتستانتية دين آبائه وأهل وطنه ثم ما لبث أن رجع إلى دين قومه وظل عايشه إلى أواخر أيام حياته . كذلك فهو نفسه الذى قال إن التربية يجب أن تصبغ بصبغة وطنية ، فتوجه الأفكار والأذواق وجهة وطنية ، وأن يرضع الطفل هذه الوطنية مع لبن أمه حتى يعيش ويموت لوطنه ولا يرى شيئا غير وطنه .

كل هذه المتناقضات وغيرها تدل على الشذوذ الفكرى لروسو مع ما له من آراء صائبة قيمة .

والحق أن الوطنية من أهم العوامل التى يجب أن نعتز بها ونفخر ، لأنها رمز الشهامة وعنوان النبالة والتضحية ، والتفانى فى سبيل انقاذ الوطن وبناء مجده ورفعة شأنه ، ومع ذلك فأقوال روسو فى الوطنية متباينة متناقضة ، فهو يدعو إلى الأخذ بها حيننا ، ويطالب بالتحرر منها فى حين آخر ، ولست أشك فى أنه كان ينساق إلى تلك الآراء انسياقا تحت تأثير فكرة عارضة تسبح له .

وهو يرى أن يشب الطفل على الفطرة ويعيش برفقة مؤدبه بعيدا عن المجتمع ، وأن يتعلم بنفسه ويسمى ذلك بالتربية السلبية ، والحوادث فى نظره هى التى تعلمه شؤون الحياة ، ولست أدري إذن كيف يتعلم من الحوادث مع أن الحوادث لا تتم إلا إذا اتصلت بالمجتمع ! وبما أن المجتمع فى نظره فاسد فعلى تلميذه أن يعيش بين القسايات والأحرش كما تعيش الحيوانات ، وذلك كي يأمن عليه من أن تتسم أفكاره بها فى المجتمع من مفسد وشور ، هذا مع أن الانسان اجتماعى بالفطرة ، فكيف إذن توحى الفطرة ، مع ما فيها من طهر ونقاء ، بالاجتماع على ما به من مفسد وشور ؟

ويقول إنه على المؤدب أن يؤدب الطفل إذا أخطأ دون أن يشرح له ماهية تلك الأخطاء ، بل أن يفهمه أن ذلك العقاب نتيجة محتمة لذلك العمل .

ويفضل روسو وجود الظرف الذي يؤهل للطفل تعلم الأشياء التي لا بد منها للحياة ،
فمثلا يجد (إميل) نفسه أمام لوحة يريد أن يعرف ما بها وهو لا يقرأ ، فيضطر إلى التعلم
ليستفيد من العلم المعرفة ، وهنا يعنى لنا أن نتساءل ، كيف يمكن أن يلم (إميل) بالمعرفة
دون أن يعرف شيئا عن العالم الخارجى ؟ ولكنها على كل حال آراء روسو المتطرفة .

كذلك يريد أن يكون تلميذه نباتيا يعيش على الخضر والفاكهة ، وأن يعنى بتربية
حواسه ، وأن تترك له الحرية التامة فى أعماله وتصرفاته متحملا نتيجة ما بها من خطأ
وصواب .

ويحذر بنا أن نتصدى لهذا رأى ، فالإنسان يولد بالطبع ناقص العقل وفى تصرفاته
ولا شك أخطاء كثيرة قد تباع أحيانا حد الخطورة ، فهل من الأصوب حقا أن ندع الطفل
يتحمل عواقب تلك الأخطاء ؟ إن روسو يريد ذلك ، فإذا حدث وحطم الطفل مثلا لوحا
من الزجاج فى نافذة غرفته فلا يوضع لوح آخر ، دون الاهتمام بما يصيب الطفل من نزلات
البرد التى ربما تقضى على حياته ؛ فإن ما يشعر به من ألم سيدهه فى المستقبل حريصا على
زجاج النوافذ فلا يحطمها . وهو فى هذا رأى يتجرد من العاطفة تجردا يظلم معه طفله
القاصر ، وليس من المعقول طبعا أن تترك الأم طفلها ، مهما اتهمت بالقسوة ، ليتعرض
للمرض والموت كي يتعلم درسا لا ينساه .

وليس من الغريب أن يجاهر جان جاك روسو بتلك الآراء وهو الذى لم ير له أما وعاش
محروما من الحنان المتلى ، فقد مات أمه بعد ثمانية أيام من ولادته ففازته الأيام بين صروفها
وأراه الدهر كثيرا مما خلق فى نفسه تلك الأوهام ، وهو شخصا قد أدخل أولاده الخمسة
فى أحد الملاجئ مع ما كان متمتعا به عندئذ من رغد العيش ، فكيف يشعر من كانت هذه
أعماله بالعطف الأبوى والحنان التربوى ؟

إنه يريد أن يعزل الطفل حتى عن أمه ، وألا يكون معه غير مؤدبه الشاب الذى يقضى
معه أكثر سنى حياته ، والذى يجب أن يكون بلا أجر كما يقول روسو حتى لا يكون له دافع
فى تربيته إلا الميل الشخصى . ولست أشك فى استحالة تلك المطالب الخيالية التى كان
متأثرا بها فيلسوف القرن الثامن عشر من المناظر الطبيعية (والتابلوهات) الخلوية الفاتنة كما
وضحت فى أول المقال .

فإذا سلمنا جدلا بأننا وجدنا هؤلاء النسوة اللاتى يرضين بمفارقة فلذات أكبادهن ،
فكيف نجد المربين ؟ وإذا فرضنا وجدنا هؤلاء أيضا فهل يتم لنا الحصول على جيل صالح
مثالى يقربنا من " السبرمان " المزعوم ؟ أم نحصل على جيل ساذج خيالى تملؤه الأوهام ،
يعمل بجواسه ولا يفكر بعقله ؟ جيل لا بد له أن يختلط بالمجتمع فى يوم ما فيظل معه على طرق
نقيض ، لأنهما لن يتفاهما ، ابن الطبيعة الخيالى ، وابن الحقيقة والتجارب والمجتمع ؟

إن تعاليم روسو لو طبقت جدلا وحصلنا على (إميل) فإن يلبث إميل أن يصطدم بتيار المجتمع الجارف بعد أن يصير شابا فيصيبه في نفسه ومعلوماته وميوله ، فإما أن يزوى ويعيش غريبا بين الناس وإما أن يخضع للمجتمع من جديد فيحاول أن ينهل من تعاليمه التي يحفلها في كبره ما كان لا بد له أن ينهل في صغره ، وفي هذا من الصعوبة ما يعرضه لأشد ألوان التجارب وأقساها على نفسه المنظورة على الحرية اللا محدودة ، وعقله الذي جبل على عدم البحث والتفتيش ، ذلك العقل الذي أراد له روسو أن يعيش في محيط الجهل حتى يباغ تلميذه الثانية عشرة بعيدا عن استعمال الكتب ، وكأن في استطاعة مداوكة أن تنمو بعيدة عن المراتبة اللازم لها .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أعرض رأي روسو في تربية المرأة ، فهو يرى أن المرأة لم تخلق للعلم والحكمة ولا للفن والسياسة ، بل خلقت لتكون أما تنجب أولادا تعيش لترضعهم حتى إذا تمت مدة الرضاعة عهدت بهم إلى المؤدب لتسأنف عملية الوضع والرضاع من جديد ، على أن تكتفى بمبادئ المعرفة الأقوية البسيطة .

ومع ما في هذا الرأي من نواحي الحقيقة ، ففيه أيضا الكثير من نواحي الأناثية والاستبداد ، استبداد رجل العصور المظلمة الذي كان يعتقد أن المرأة دابة خلقت لحفظ النوع .

ولا نزاع هناك بأن وظيفة الأمومة هي الوظيفة الحقيقية للمرأة وأن البيت هو مملكتها الصغيرة ، ولكن ذلك لا يمنع مطلقا من أن تكون ربة تلك المملكة على جانب محترم من المعرفة كي تتمكن من الاحتفاظ بمكانتها والقدرة على إدارة شؤون مملكتها ، لا أن تكتفى كما يقول بتعلم مبادئ المعرفة البسيطة ، فلامررى إن الجهل المطبق لخير من العلم الناقص والمعرفة المتبورة . . .

وروسو يقول إن الفتاة ذات الذكاء والعبقرية وباء لزوجها وأسرته وأصدقائها وكل معارفها ، لأنها في عيائها نبوغها تحقر كل واجباتها كأمراة وتعالى عن دائرتها الطبيعية للتطلع إلى مراكز الرجال ، وأنى أؤيد كل من يوجهون النقد للمرأة التي تتناول على مراكز الرجال ، بل أدعوهم لوجهوا إليها من النقد فالإنسان لا يسلم من النقد إذا خرج عن طبيعته التي هيأتها له المقادير ، لأن مكانة المرأة في مكانة زوجها ، ومسيرتها في إسعاد أسرتها ومدى ما تقدمه لها من رفاة وهناء .

ومع ذلك فروسو هنا يتجنب كثيرا في آرائه على المرأة المتعلمة بوجه خاص ، دون التفرقة بين هؤلاء اللاتي تعلمن لمزاحمة الرجل ، أولئك اللاتي تعلمن حبا للمعرفة ، وشغفا باستجلاء حقائق الحياة .

والحقيقة كما يراها بعض نقاد روسو انه ما دفع إلى افتراءه على المرأة المتعلمة إلا لبيض ستارا على حقيقة حياته عندئذ وتبريرا لموقفه في معاشرته لامرأة جاهلة بلهاء كثيرا ما عابه الجميع على الركون إليها رغم نزعه الفلسفية في الحياة .

ولهذا فهو القائل أيضا بأن أدوات النبوغ تتعدى مرامى النساء ، فليس لمن الثقة التي تكفل لمن النجاح في المسائل الدقيقة ، متناسيا أن للمرأة استعدادا طبيعيا لإجادة كل ما يعرض لها من شؤون الفكر والفن ، وأن تاريخ الدول حافل بأسماء عظيمات النساء اللواتي قدمن للعالم من الإنتاج والتقدم العلمى ما تعتر به تلك الدول وتدونه في أنصع صفحات مجدها ورقبها الفنى ولست فى حاجة إلى ذكر الأسماء فهى ليست فى حاجة إلى تبيان ويكفينا مثلا مدام كورى مخترعة الراديو .

فاذا سلمنا بعد ذلك لروسو بنظريته فى ابقاء المرأة على جهلها ، واعتبارها أداة خلقت للرجل وممراته ، وإرضاء ميوله ونزواته ، فكيف يستطيع (أميل) ربيب الطبيعة وتلميذ المؤدب ونحريج الحياة ، كيف يستطيع متى بلغ مبلغ الرسولة أن تشاركه الحياة جاهلة تفرغ فى أحوال الغباوة والتبلد ، وهو ابن الطبيعة الخيالى ، العائش بين بدائع الفنان الأعظم وملكوت الخيال والكمال ؟

ولا ريب أنه كان من الأصوب لروسو أن يحتفظ لتلميذه بالمستوى الذى دفعه اليه طلب المعرفة عن طريق الطبيعة وحوادث الأيام ، يفرض لزواجه امرأة توازيه من حيث المعرفة يقيم بينهما التفاهم الكلى ، لا أن يتليه بامرأة تعطيه من جهلها أكثر مما يعطيها من معرفته .

ويقينى لو تنبه روسو حينئذ الى أن الحياة المتزلية ليست كلها كحيط منزله الخامد ، وليست كل النساء كشريكته الغبية البلهاء لعرف أنه لا بد لكل من الرجل والمرأة من المعرفة الكاملة ، وليس هناك ما يحتم تقصان معرفة المرأة عن معرفة الرجل ، لأنها هى التى تتعهد الرجل طفلا ، وترعاه رجلا ، وانها هى التى تغرس فى طفلها بذور المعرفة والدراية رغم كل النظريات والآراء ، وأن الطفل لا يفتح عينيه إلا على وجهها ، فيحاكى أقوالها وأفعالها ، ليكون نسخة ثانية منها .

ان فى كتاب (أميل) نظرات تضيق بها هذه الصفحات المحدودة ، ومع ذلك أتمنى أن أكون قد عرضت فى هذا المقال الموجز للنواحي الهامة فى هذا الكتاب ، الذى أخرج منه بأن روسوله آراء قد تكون خاطئة ، ولكنها قد تكون سابقة لأوانها ، وفى الحالتين لا تصحح بجهلها كى نطبقها على المجتمع ، وإن كان لا بد لنا من الاسترشاد بها إذا ما أخذنا فى إصلاح طرق التربية .

زينب محمد حسين